مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد الثامن / العـدد الأول
(ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م)، ص 541– 559

المرجعيات السياقية في الشعر الجاهلي في ضوء نظرية التلقي

Contextual references in the pre-Islamic poetry in the light of reception theory

Ben Saifia Ahmed [1] ط.د/ أحمد بن صيفية

[1] University of Algiers 2 (أبو القاسم سعد الله) جامعة الجزائر2

المؤلف المرسل: ط.د/ أحمد بن صيفية Ben Saifia Ahmed الايميل: bs.Ahmed47@gmail.com

تاريخ الاستلام: 17 /10/ 2022 تاريخ القبول: 02 /03/ 2024 تاريخ النشر: 15 /06/ 2024

الملخص:

ترتكز هذه الدراسة على مفهوم السجل النصي كواجهة خلفية للخطاب الشعري تعمل على التفاعل مع البنية الذهنية للقارئ بما يؤدي إلى إعادة إنتاج الخطاب حسب كفاءة الذات القارئة، ومخزونها الثقافي، وفي هذا الإطار تعنى الدراسة في جانبها التطبيقي بتوظيف السياقين التاريخي، والأسطوري في الخطاب الشعري الجاهلي، وأثرهما في إقامة التواصل المنشود بين الخطاب والمتلقي.

الكلمات المفتاحية: القراءة، السجل النصي، السياق، الخطاب، القارئ.

Abstract:

This study is based on the concept of the textual record as a background interface for the poetic discourse that works in interaction with the mental structure of the reader, which leads to the reproduction of the discourse according to the efficiency of the self-readier and its cultural heritage. In this context, the study, in its practical aspect, is focusing on using the historical and mythological contexts in the pre-Islamic poetic discourse, and their impact on establishing the desired link between the discourse and the recipient.

Keywords: Reading, textual record, context, discourse, reader.

1. مقدمة:

الخطاب الشعري عالمٌ واسعٌ، تمورُ فيه كيانات ذات طبائع شتى، وتومض في جنباته إشارات لمرجعيات مختلفة ،جاءت لتخدم مقاصده الإبداعيّة المختلفة، يرى «وولفغانغ إيزر» أنّ تفاعل القارئ مع الخطاب الأدبي، يتوقّف أساسًا، على وُجود أدوات، وحُضور معطيات أساسيّة، هي في حقيقتها إحالات تهدف إلى الوصول إلى تحقيق التواصل بين القارئ، والبنية النصيّة للخطاب، تُشكّل هذه المرجعيات سجّل النص، حيث يخضع توظيفها في الداخل النصي إلى إعادة صياغة ضمن سياقات جديدة، لتفقد أبعادها التداولية المألوفة، آخذة أبعادا فنيّة أخرى، ومُذكيةً معاني جديدة، يتوجّب على القارئ، الوصول إليها، وفك شفراتها.

تكمن أهميّة هذه الإحالات في كونها تُكرّس الفعل التواصلي الذي تصطبغ به العلاقة بين النص، والقارئ، ومن دون هذه الوشائج، يطبع الفتور علاقة الخطاب بالقارئ، وتفقد الذات القارئة كثيرا ممّا يمكن أن يصلها بعوالم الخطاب الشعري.

إنّ هذه المرجعيات لا تقتصر على النصوص السابقة للخطاب الأدبي، إنّها تشمل كذلك المعايير الاجتماعية، والتاريخية، والثقافية، التي لها أهميّتها الجمّة في إعطاء معنى للنص[1].

حين نقف مُسلّطين الضوء على الخطاب الشعري الجاهلي، نلمح إشاراتٍ كثيرة، تضيء في رقعته النصيّة، تستأثر بانتباه المتلقي، وتُحرّك عنده مُحفّزات القراءة، والتلقي.

تحاول هذه الدراسة، الإجابة عن الإشكالية الآتية:

كيف استطاع الشاعر الجاهلي توظيف السياقات المختلفة في كيان القصيدة؟ من خلال وقوفها على توظيف السياقين التاريخي، والأسطوري، في الخطاب الشعري الجاهلي.

2. السياق التاريخي:

يمنح الشعرُ التاريخَ، ظلاً ظليلاً في عوالمه الساحرة –كغيره من الحقول الأخرى التي تتماهى في كيان القصيدة– على أنّ حُضور التاريخ كَرَافِدٍ يخدمُ أهداف الخطاب الشعري، يظلّ رَهْنًا بما يُكسب الخطاب من إثراءٍ لمقاصده، ودلالاته، وعناصره الفنيّة، وبما لا يُؤدي –في كُل الأحوال– إلى التأثير سلبا على الهويّة الإبداعيّة للخطاب الشعري، التي تُميزه عن بقيّة الأنواع الأخرى من الخطاب، ممّا يُنذر بأن يتغلّب عنصر التاريخ على العناصر الجمالية للخطاب الشعري، ويسلبه بهذا أهمّ ما يملكه من خصائص،

ليتحوّل الخطاب –في الأخير– إلى شكلٍ باهتٍ من الأشكال الفنيّة، يكون أقرب إلى وثيقة تاريخية، تُؤدي دورًا إبلاغيًا مُباشرًا، تُسجل أحداث التاريخ، وتُدوّن وقائعه، وتُحدّثُ الناس عن شخصياته، وتلك جوانب لا تناطُ بالعمل الفني الإبداعي الحقيقي.

إنّ عملية استدعاء العنصر التاريخي في الخطاب الشعري، لا تعني أبدًا أن "يبقى الشعر رهينة في قبضة التاريخ ووقائعه وحقائقه، بل تعني قدرة الشعر على استحضار وقائع التاريخ وشخصياته، وإضفاء الشاعر عليها بُعداً يستجلي من خلاله صورة العصر وما فيه من أحداث، ويتوقّف نجاحه في التجاوز بالحقائق التاريخية من نطاقها العلمي الجاف إلى منطقة الشعور الحار المتدفّق، حيث ينفخ فيها من روحه وذاته، حتى تستوي كائناً حياً نابضاً بالحرارة، والصدق والأصالة"[2]، إنّ من شأن هذا الأسلوب في التعامل مع الرافد التاريخي، أن يُحافظ الشعر، على طاقاته التخييلية، وطابعه الاحتمالي، الذي تُذكيه الدلالات الكامنة الخفية، في الداخل النصي، وهي دلالات تجتذب الذات القارئة، وتستدعي التحامها بعالم النص، وغوصها في طبقاته الداخلية، ومن خلال هذا التفاعل الحقيقي، تتحقق أهداف القراءة، وتتجسّد إنتاجيتها.

إنّنا حين نعود إلى صحائف التراث النقدي العربي القديم، نجد أنّ نقادنا القدامى، أكّدوا على أنّه إضافة إلى ضرورة تمكّن الشاعر من ناصية اللغة، ومعرفته بفنون الشعر، وأضربه، فإنّه يتوجّب عليه معرفة أخبار الأمم، وأحداث التاريخ، وأيام العرب، وأنسابها، جاعلين منها شُروطا لا مناص منها لمن أراد أن يقول الشعر، ويأتي به على أحسن وجوهه، يقول «الأصمعي»: "لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي أشعار العرب، ويسمع الأخبار، ويعرف المعاني وتدور في مسامعه الألفاظ"[3]، وفي هذا المعنى يقول «ابن رشيق»: "وليأخذ نفسه بحفظ الشعر والخبر، ومعرفة النسب، وأيام العرب، ليستعمل بعض ذلك فيما يريده من ذكر الآثار، وضرب الأمثال، وليعلق بنفسه بعض أنفاسهم ويقوى بقوة طباعهم، فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل أصحابه برواية الشعر، ومعرفة الأخبار"[4].

استحضر الشاعر الجاهلي أحداث التاريخ، ووقائعه، واستدعى أعلامه، وتجوّل في مدائنه، ووظّف غير ذلك من المكوّنات المرتبطة بعوالمه الفسيحة، من أجل تحقيق أهداف القصيدة، وقد جاء حُضور هذه العناصر، في المتن الشعري الجاهلي، في سياقات جديدة، ابتعدت عن سياقاتها الأصلية، وفي كثير من الأحيان، ألفينا، استدعاء الشاعر للحدث التاريخي في معرض الدعوة إلى الاعتبار، والموعظة، من مصائر الأمم

الغابرة، التي سجّلتها صحائف التاريخ، وردّدتها ألسنة الناس على مرّ العصور، يقول «عدي بن زيد» (من المنسرح)[5]:

مَـاذا تُرَجِّـي النُّفُـوسُ مِـنْ طَلَـبِ الخَيْـ ـــرِ وَحُـــبُّ الحَيَـــاةِ كَاذِبُـهَـــا؟
تَظُـنُّ أَنْ لَـنْ يُصـيبَها عَنَـتُ الدَّهْـ ـــرِ وَرَيْـــبُ المَنُـــونِ كَارِبُـــها
مَـا بَعْـدَ صَنْـعَـاءَ كَـانَ يَعْمُـرُهـا وُلاةُ مُـلْـــكٍ جَـــزْلٌ مَوَاهِـبُـــهَا
مَحْـفُـوفَـــةٌ بِالجِبَـالِ دُونَ عُـــرَى الكَيْـدِ فِيـــهَا تَـرْقَـــى غَـوَارِبُـــها
سَاقَت إِلَيْهَا الأَسْبابُ جُنْدَ بَنِي الْـ أَحْـــرَارِ فُـرْسَانُـــهَا مَـواكِبُـــها
وَكَـــانَ يَـوْمًـا بَـاقِـي الحَدِيـــثِ وَزَا لَـــتْ إِمَّـــةٌ ثَابِـــتٌ مَـرَاتِـبُـــها
بَعْـــدَ بَـنِـــي تُبَّـــعٍ نَـخَـــاوِرَةٌ قَـــدِ اطْمَـأَنَّـــتْ بِهِـــمْ مَـرَازِبُـــها

جاءت الأبيات في حديث الشاعر عن طبائع الحياة المتقلّبة التي لا تدوم على حال، وعن تلك النفوس الإنسانيّة اللاهية التي استأنست إلى عيش رغيد سعيد، لم تدر أنّ أيّامه لن تدوم إلاّ أمدًا قليلاً، وقد أخذها سعي حثيث لاقتناص لذائذ العيش، وطلب مسرّات الحياة، وهي في كلّ هذا غافلة عما يخفيه لها الدهر من محنٍ، وشدائد، وما تترصّده لها يد المنون، وتلك سنّة الحياة التي يدركها العاقل الأريب، ويغفل عنها الغِرُّ الساذج، ومن أجل تعزيز رؤاه، يُقلّب «عدي» صحائف التاريخ، مُستدعيا أحداثه، ضاربا الأمثال، مُتحدّثا عن مدينة صنعاء في غابر الدهر، وقد كانت حاضرةً من حواضر الدنيا، آمنة، مطمئنة، يحكمها مُلوكٌ شدادٌ، وتحرسها جبال منيعة من كلّ جانب، وإذا بالأيام تأتي أهلها بما لم يحتسبوا، فتغزوهم جيوشٌ لا قِبَلَ لهم بها، ويؤول أمر المدينة إلى الفُرس، ويزول حكم التبابعة، ويذلّ من كان فيها عزيزا لا يخشى تقلّب الأحوال، ولا يكترث بما قد تُخبّئه الأيام من هموم وأحزان.

لقد استطاع «عدي بن زيد»، استجلاب وقائع التاريخ، ليغرسها في الجسد النصي، ويضعها في خدمة سياق جديد، هدفت إليه القصيدة، مُتمثّلاً في تأكيد الدلالات الداعية إلى الموعظة، والاعتبار، ومن الواضح أنّ الشاعر لم يهدف إلى أن يعيد سرد الحدث التاريخي –فذلك واقع يُدركه كل الناس– وإنّما جاء بهذا الحدث ليوظّفه لتعزيز الدلالات المشار إليها آنفا، وتقوية تأثيرها في ذهن المتلقي.

وحين نتوقف عند شاعر آخر، هو«النابغة الذبياني»، فإنّنا نجده كذلك يلجأ إلى التاريخ، يُوقظ شخصياته الغابرة من سُباتها، وقد طواها الدهر فيمن طواه، وأسدل عليها الزمن ستائره، ثمّ يُعطيها أدوارها الجديدة في

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد الثامن / العدد الأول
(ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م)، ص 541– 559

عوالم القصيدة، يقول «النابغة» في سياقِ مَدْحِه لـ«عمرو بن الحارث الغساني» في أبيات ذائعة الصيت (من الطويل) [6]:

إذا ما غزوا بالجيش، حلّقَ فوقهمْ — عَصائبُ طَيْرٍ، تَهْتَدي بعَصائبِ
يُصاحِبْنَهُمْ، حتى يُغِرْنَ مُغارَهم — مِنَ الضّاريَاتِ، بالدّماءِ، الدّوارِبِ
تراهنّ خلْفَ القَوْمِ خُزْراً عُيُونُها، — جُلُوسَ الشّيوخ في ثيابِ المرانِبِ
جَوَانِحَ، قَد أيْقَنّ أنّ قَبيلَهُ، — إذَا مَا التَقَى الجَمْعَانِ، أوّلُ غَالِبِ
إذا استُنزِلُوا عَنهُنّ للطّعْنِ أرقلُوا، — إلى المَوتِ، إرقَالَ الجِمَالِ المصاعبِ
ولا عَيْبَ فيهِمْ غَيْرَ أنّ سُيُوفَهُمْ، — بهنّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ
تورِّثْنَ مِنْ أزمانِ يَومِ حليمةٍ، — إلَى اليَوْمِ قَدْ جُرِبْنَ كُلَّ التَجَاربِ

يقع المتلقي، تحت تأثير طاغٍ تُمارسه عليه سُلطة الخطاب الشعري العاتية، وهي سُلطة تعتمد على قدرة الشاعر الفائقة على ابتكار الصور الشعرية، وإبداع المشاهد المتلاحقة، التي تأخذ باستئثار المتلقي كلّ مأخذ.

يصف «النابغة الذبياني»، بأس الغساسنة أبلغ وصف، إذ يذكر أنّهم قومٌ بلغوا من شدّة البطش، أنْ كانت الطيور الجوارح تُصاحبهم في كُل غزواتهم جماعاتٍ جماعاتٍ، لِتَنُوشَ من أشلاء أعدائهم، لمعرفتها أنّهم قومٌ أولي بأس شديد تمرّسوا بالحروب، ودأبوا على كَسْرِ خصومهم في ساحات النزال، ومن أجل أن يبلغ التأثير منتهاه، يُقحم «النابغة» الحدث التاريخي، ويذكر يوما أغرّا من أيامهم، هو يوم «حليمة» الذي انتصر فيه الغساسنة على خصومهم المناذرة، يوم أنْ ضمّخت «حليمة بنت الحارث الغساني» جُندَ أبيها الغالبين بالطيب، حتى بلغ صنيعها كلّ أحياء العرب، وأصبح ذلك اليوم مضربا للأمثال، فقالت العرب: "ما يوم حليمة بسر"[7]، وهو مثلٌ يُضرب لكل أمر اشتهر على ألسنة الناس.

انتقى الشاعر حدثا تاريخيا مُجلجلاً، ارتبط بشخصية «حليمة الغسانية» التي تظهر في تاريخ الغساسنة مُرتبطة بنصرهم الكبير على خُصومهم المناذرة، وقد أضحت منذئذ ذات إيحاء كبير، وحُضور طاغ في الذاكرة العربية، إنّ مجرّد ذكر اسم يوم «حليمة»، ليُوحي إلى المتلقي –على الفور– بكلّ معاني الشجاعة،

والانتصار، والإقدام، وهو قمين بأن يُثير في ذهن المتلقي كلّ هذه المعاني دفعة واحدة، بما من شأنه أن يُغني المضمون الشعري، ويُعزّز صُنوف الدلالات التي عَمَدَ الشاعر إلى إرسالها.

وفي كثير من شعره، يلوذ «النابغة الذبياني» بالتاريخ، ووقائعه لتأكيد رؤيته، وتعزيز مواقفه الشعرية، وخدمة أغراضه المختلفة التي يرمي إليها، يُسعفه في ذلك ما أُوتي من ثقافة تاريخية واسعة، ومعرفة كبيرة بأخبار العرب، وأيّامها، وما يربط القبائل العربية، من أحلاف، وعهود، ومواثيق، يقول «النابغة» مُخاطبا «عُيينة بن حصن الفزاري» الذي دعا بني ذبيان إلى نقض حلفهم مع بني أسد، (من الوافر)[8]:

إذا حاوَلْتَ في أَسَدٍ فُجُوراً ... فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِّي
فَهُم دِرعِي التي اِستَلأَمتُ فيها ... إِلى يَومِ النِسارِ وَهُم مِجَنّي
وَهُمْ وَرَدوا الجِفارَ عَلى تَميمٍ ... وَهُمْ أَصحابُ يومِ عُكاظَ إِنّي
شَهِدتُ لَهُم مَواطِنَ صادِقاتٍ ... أَتَيتُهُمُ بِوُدِّ الصَدرِ مِنّي
وَهُمْ سارُوا لِحُجْرٍ في خَميسٍ ... وَكانُوا يَومَ ذَلِكَ عِنْدَ ظَنّي
وَهُمْ زَحَفُوا لِغَسّانٍ بِزَحْفٍ ... رَحيبِ السَّربِ أَرعَنَ مُرجَحِنِّ
بِكُلِّ مُجَرّبٍ كَاللَيْثِ يَسْمُو ... عَلى أَوصالِ ذَيّالٍ رِفَنِّ
وَضُمْرٍ كَالقِداحِ مُسَوَّماتٍ ... عَلَيْها مَعشَرٌ أَشْباهُ جِنِّ
غَداةَ تَعاوَرَتْهُ ثَمَّ بِيضٌ ... دُفِعنَ إِلَيهِ فِي الرَّهَجِ المُكِنِّ
وَلَوْ أَنّي أَطَعتُكَ في أُمُورٍ ... قَرَعتُ نَدامَةً مِنْ ذاكَ سِنّي

شهدنا في القصيدة نُزوع الشاعر إلى استدعاء وقائع، وأماكن تاريخية مشهورة مشهودة (يوم النسار، يوم عكاظ، الجفار)، وشخصيات تاريخية ذائعة الصيت (حجر الكندي)، من أجل الاستئثار بانتباه المتلقي، وتحقيق أغراض القصيدة، فقد توجّه «النابغة» بخطابه إلى «عُيينة بن حصن»، مُنتصرًا لأحلاف قومه من بني أسد، ذاكرًا مآثرهم، ومُعدّدًا خصالهم، ومُعترفًا بفضلهم على قومه بني ذبيان، استند الشاعر إلى التاريخ، الذي سجّل وقائع بني أسد المظفرة، أيام انتصروا على بني عامر، وتميم، وبني غسان، وكذلك يوم أن فتكوا بـ«حجر» ملك كِنْدَة، وتعاورته سيوفهم الصقيلة البتارة.

ذكر «النابغة» هذه الوقائع، والأحداث، من أجل التعبير عن الأغراض التي كان يرمي إليها، والتي تهدف في النهاية إلى التأثير على المتلقي، لإبراز وجاهة رأيه، من خلال تبرير أهميّة الإبقاء على حلف قومه مع بني أسد، وضرورة عدم الإصغاء إلى «عُيينة بن حصن»، وهو لأجل هذا وجد في التاريخ مُتكَأً، يخدم مقاصد القول الشعري، ففي التذكير، ببأس هؤلاء الأحلاف، وذكر ما كان من جَلَدِهِمْ في الحروب، وشدّتهم عند

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد الثامن / العـدد الأول
(ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م)، ص 541– 559

الاقتتال في ساحات الوغى، ما يحملُ قومه على الحرص على استمرار هذا الحلف الذي يخدم مصالحهم، ويُبقي على قوّتهم في هذا المجتمع القبلي الجاهلي الذي لا يحتكم إلاّ لمنطق القوّة والفتك.

ويبدو أنّ «النابغة الذبياني» كان شديد الاطلاع على أحداث التاريخ، وأخبار السابقين، وربّما يعود ذلك لاتصاله بالملوك من المناذرة اللخميين، وخصومهم الغساسنة، وما عُرف عنه من كثير تجواله في بلاد العرب، يغشى أسواقها، وأنديتها، حكما بين الشعراء، وحكيما مُصلحا ما بين القبائل من خصومة، وخلاف.

وفي ديوان الشعر الجاهلي، يحتلّ الحديث عن أخبار الأمم السابقة، ومصائرها، رُقعة واسعة، حيث حفل بنماذج كثيرة في هذا الجانب، ولا بدّ أنّ هذه الأخبار التاريخية، قد ظلت حيّة في الذاكرة العربيّة، راسخة في ضمائر أهلها، يتوارثونها جيلا بعد جيل، يقول «الأعشى» (مخلع البسيط)[9]:

أَلَـــمْ تَـــرَوا إِرَمَـــاً وَعَـــادا أَودى بِهَـــا اللَيْـــلُ وَالنَهَـــارُ
وَقَبلَهُـــم غَـالَـــتِ المَنَـايَـــا طَسْـمًـــا وَلَـــمْ يُنْجِهَـــا الحِـــذارُ
وَحَـــلَّ بِالحَـــيّ مِـــنْ جَـديـــس يَـــومٌ مِـــنَ الشَـــرّ مُستَطَـــارُ

يذكر «الأعشى» كثيرًا من الأمم البائدة، التي سادت عُهودا طويلة، ثمّ لحقها الفناء، وسامها الخراب، و"حين يتحدث عن تفاهة الدنيا، وعن غدرها بالناس، يصل من ذلك إلى أنّ كُلّ شيء يصير إلى الزوال، والفناء، فهو لا يقصد من ذلك إلاّ إلى استنباط العظة، والعبرة"[10]، من حوادث الأيام، وتقلّب صروف الدهر.

وحين تحدّث «أوس بن حجر» عن ما بذله من أجل شراء قوس أتقن صاحبها صنعها، استدعى خبر «المنخّل اليشكري»، –الذي ذكرناه فيما سلف– ذلك الشاعر الجاهلي الرقيق، الذي حدّثتنا عنه أخبار الجاهليين الغابرة، وعن قصته مع «النعمان بن المنذر»، وزوجه «المتجردة»، حتى لَيُوشك هذا الخبر أن يبلغُ مبلغ الأسطورة في المخيال العربي القديم، قال «أوس بن حجر» (من الطويل)[11]:

وأزعجَـــهُ أنْ قيـــلَ شـــتّانَ مـــا تـــرَى إليـــكَ وَعُـــودٌ مِـــنْ سَـــرَاءٍ مُعَطَّـــلُ
ثلاثـــةُ أبـــرادٍ جيـــادٍ وجرجَـــة وَأدْكَـــنُ مـــن أرْي الـــدُّبورِ مُعَسَّـــلُ
فَجِئْـــتُ ببَيعـــي مُولِيـــاً لا أزيـــدُهُ عليـــهِ بهـــا حـــتّى يـــؤوبَ المنخَّـــلُ

حدّثنا «أوس» عن قوسه وقد دفع في شرائها، ثلاثة أبرادٍ جياد، وزقا من عسل، ولما رأى الشاعر أنّ البائع، وقد أخذه الجشع في أن يستزيد في ثمنها، ويُغلي سومها، أخذ الشاعر بضاعته مُصرًا على أن لا يزيده أكثر مما أعطاه، حتى يؤوب المنخّل، وهو مثلٌ عربي ضارب في القِدَم، وفي هذا التوظيف اللطيف لهذا المثل ما يُوقظ في ذهن المتلقي كلّ الدلالات التي تُعبّر عن الغائب الذي يئس الناس من رجوعه، والأمر الذي لا يُؤمل حصوله، تمامًا مثلما لا تُرجى عودة «المنخّل»، وقد انقطع خبره حين ناله غضب الملك «النعمان بن المنذر»، وقد قيل أنّه ألقاه في قعر بئر مظلمة، ولم يُعرف خبره.

وفي رثاء «مالك بن نويرة» قال أخوه «متمم» (من الطويل) [12]:

وعشْنَا بخَيْرٍ فِي الحياة وقبلنا … أصابَ المنايَا رهْطَ كِسْرى وتُبّعا
وكُنَا كنُدمانيْ جُذَيْمَةَ حِقْبَةً … مِنَ الدَهْرِ حَتَى قِيلَ لَنْ يَتَصدَّعَا
فَلَمّا تَفَرّقْنَا كَأَنِي وَمَالِكًا … لطُولِ اجتِمَاع لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

استدعى الشاعر من التاريخ شخصياته، وألقى بها في زمنها الجديد، وفي موقعها في أبنية القصيدة لتؤدي أدوارها الجديدة، لقد استحضرها ليستعين بها على رَفْدِ الخطاب الشعري بدلالات قويّة ذات إيحاءات خصبة نابضة بدفقها الشعوري الفياض، فَذَكَرَ «كسرى»، و«تبع اليمن»، وقد أراد بذلك أنّ الموت الذي لحق بأخيه، إنّما قد اخترم قبله «كسرى»، و«تُبّع»، وقد "بلغا غاية السؤدد، والقوّة، وأدركا غاية ما يطمح إليه الإنسان، دون أن ينجيهما ذلك من الموت الذي سَخِرَ مما تعاظما به على الناس، وبذلك يغدو موت أخيه جزءًا من الدوامة الكبرى التي تُدوّم حول أعناق البشر لا ينجو منها ناج، لا الملك، ولا الصعلوك، لا الغني، ولا الفقير"[13]، كما استحضر «مُتمم» خبر «جذيمة الأبرش» أحد ملوك العرب القدماء، وصاحبيه «مالك»، و«عقيل»، الذين يضرب بهما المثل في طول الصحبة، فقد حدثتنا عنهم الأخبار أنّهما ظلاّ نديمين لـ«جذيمة» أربعين سنة حتى فرّق الموت بينهم، والشاعر هُنا أراد أن يحمل إلى المتلقي، ما يُنبئ عن شدّة افتقاده لأخيه، وجزعه بعد مقتله، وقد كان بينهما، عهد طويل من الصُحبة، حتى فرق الموت بينهما، فكأنّ هذا الزمن الطويل كلّه لحظة واحدة، وقد انصرمت، ومضت إلى غير رجعة، ويُنظر إلى أنّ توظيف هذه الحكاية القديمة، قد جاء عاكسا لطبيعة الحياة التي يكتنفها غير قليل من التناقض، وتسكنها المفارقة في كلّ مظاهرها، وهكذا فإنّ المتلقي إنّما "يخيل إليه أنّ جذيمة، ونديميه لبثوا يعاقرون اللذة، والسعادة، زمنا لا حدّ له، ثمّ تصدعوا، وتفرقوا، وحال بينهم حائل الفراق و الموت. ولقد أزال الشاعر بذلك عامل الزمن

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد الثامن / العـدد الأول
(ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م)، ص 541– 559

من قيم الأشياء، فبدا له قصرها كطولها واللحظة كالدهر، حتى أنّ المتناقضات لتجتمع، وتتماثل، فيبدو الاجتماع، كالفراق، والسعادة كالتعاسة"[14].

لقد استدعى الشاعر هذه الشخصيات التاريخية الشهيرة، وذكر خَبَرَهَا في ألفاظ موجزة أغنى به الخطاب الشعري، واستغنى به عن الإسهاب في الحديث المباشر الذي قد يبعد المتلقي عن أجواء الخطاب، من أجل إيصال الدلالات التي كان يرمي إليها، ولا شكّ أنّ هذه الدلالات لم تكن لتخفى عن المتلقي، إذ أنّ أخبار هذه الشخصيات مألوفة في الموروث الثقافي، مُتجذّرة الحضور في الذاكرة العربيّة منذ القديم، وبهذا فإنّ استحضارها إنّما هو مما يُذكي التفاعل بين هذه الذات المتلقية، والخطاب الشعري، ويعزّز الدلالات التي يتقصدها الخطاب الشعري، "فعناصر هذا التراث ومعطياته لها من القدرة على الإيحاء بمشاعر وأحاسيس لا تنفد، وعلى التأثير في نفوس الجماهير ووجداناتهم، ما ليس لأي معطيات أخرى يستغلها الشاعر, حيث تعيش هذه المعطيات التراثية في أعماق الناس، تحفّ بها هالة من القداسة والإكبار؛ لأنّها تمثّل الجذور الأساسية لتكوينهم الفكري والوجداني والنفسي"[15].

3. السياق الأسطوري:

يلفُّ التحديد الدقيق لمصطلح الأسطورة صُعوبات جمّة، ويكتنف الإحاطة بمدلولاته اضطرابٌ شديدٌ، عند جمهور الباحثين، وتباين كبير في رؤاهم "على الرغم من جميع الاجتهادات العلميّة المبذولة في هذا المجال "[16]. إنّ مردّ هذا الغموض، إنّما يعود إلى تقاطع هذا المصطلح، وتداخله مع مفاهيم أخرى، تجمعه بها أواصر وثيقة جدا، "فقد تصبح الأسطورة تاريخا، وخرافة، وقد تتداخل مع الخيال الشعبي، والحكاية الشعبية، وقد ترادف والفكرَ الميثولوجي، وعلم الأديان المقارن، لكن يظلّ المصطلح مُختلفًا من بعيد أو قريب عن المصطلحات السابقة على الرغم من تقاطعه المتعدّد معها"[17]. وعلى الرغم من هذا الاضطراب الشديد الذي اكتنف هذا المصطلح، فإنّنا نطمئنّ إلى القول أنّ: "الأسطورة هي المصدر الأوّل والأقدم لجميع المعارف والخبرات الإنسانيّة، فهي جماع التفكير والتعبير عن الإنسان في مرحلته البدائيّة والقديمة"[18]، وهي إضافة إلى هذا البعد الذي يحفظ للإنسانيّة تجاربها، لِتَكُونَ أداة الإنسان، في السير في دروب حياته، فقد مثّلت وسيلة للتعبير عن "عن حلم الإنسان الخارق صاحب الملكات المثاليّة، وعن قوى الطبيعة، فأصبحت مجموعة من الرموز المجازيّة لمعانٍ كمرحلة، وقوى ومثل، وتشخيصا لمبادئ أخلاقية،

ونواميس طبيعية، وللعناصر الكونية كمرحلة من مراحل الفكر، تقوم على التشخيص وإشباع الحياة على المحسوسات والكائنات والظواهر. اعتقادا بوجود الحياة في كل شيء"[19].

إنّ توسّل الرافد الأسطوري في الخطاب الشعري، لمن شأنه أن يُؤدي إلى تفجير دلالات واسعة، في كيان المتلقي من خلال ما يحمله العالم الأسطوري من أدوات، ومُؤثرات شتى، تُديرها كائنات فاعلة تمتلك قدرات خارقة، وهو ما يجعل الأسطورة تتمتّع بإمكانيات غير محدودة، يكون توظيفها في الخطاب الشعري، من دواعي الإثراء الفياض لهذا الخطاب من جهة، ومن جهة أخرى ما يكون من تأثير شديد، في جمهور المتلقين، وما يؤدي معه، إلى ردود أفعال مُثمرة، ومُشاركات قرائية بنّاءة تعمل على تعزيز دلالات القصيدة، كلّ ذلك في مُختصرٍ شديدٍ من القول الشعري، بفضل ما تختصّ به الأسطورة من "القدرة على التشخيص والتمثيل، ومنح الحياة للأشياء الجامدة، واستخدامها الظلال السحرية للكلمات والصور البيانية القادرة على الإحاطة والكشف، أضف إلى ذلك، هذه الطاقة الخيالية الجامحة القادرة على ارتياد عالم الطبيعة والإنسان"[20]، .

لم يكن المجتمع العربي الجاهلي، بِدْعًا عن غيره من المجتمعات الأخرى التي شغلت الأسطورة حيزا واسعا في موروثاتها، وثقافاتها، فقد كان للأسطورة حُضورها المؤثّر في المخيال الجماعي العربي قبل الإسلام، إذ كانت أداة الإنسان العربي في تفسير كثير من مظاهر حياته، وفي التعبير عن مواقفه التي تصطدم في أحايين كثيرة، بقوى غامضة، وأخرى قاهرة تتجاوز مُدركاته، ومعتقداتهُ، فلا يجد لها تعليلاً إلاّ ضمن إطار هذا المفهوم الرحب، الذي توسّله ليستوعب همومه، ويفزع إليه ليحتوي مخاوفه، ويُبدّد قلقه الوُجودي الذي يكتنفه، ويلجأ إليه ليُجيب عن كثير من أسئلته الملحّة التي تساوره، في تلك المرحلة الخاصة التي طبعت تفكير المجتمع العربي آنئذ، وهكذا فقد صاحبت الأسطورة الإنسان العربي في ذلك الوقت، واستطاعت أن تنسجم مع نمط تفكيره، وهو ما يثبت أنّ الأسطورة العربيّة الجاهليّة لم تكن "بليدة خاملة كما يعتقد البعض، لأنّ الإنسان الجاهلي لم يقف أمامها مكتوف اليدين حائرا، تستحوذ عليه مفاجآتها، وتسيطر عليه حوادثها، وإنّما نظر إليها نظرة ناضجة، واستطاع أن يستخدمها استخداما موفّقا في تحقيق أغراضه التي كان يتحدّث عنها"[21]. ولما كان الشعر الجاهلي، هو لسان حال هذا الإنسان العربي، والمعبّر عن كثير من تفاصيل حياته، فإننا نجده وقد فتح أبوابه مُشرعة للروافد الأسطورية، لتحتلّ مكانها في عوالمه الفسيحة، للتعبير عن قليل، أو كثير من المعاني التي جاءت من أجلها القصيدة، نلمس هذا الجانب، من خلال كثير

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد الثامن / العـدد الأول
(ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م)، ص 541– 559

من نماذجه التي ألفيناها، وقد غمرها نَفَسٌ أسطوري جيّاش، اكتنز من الدلالات حظا كبيرا، استطاع معه المتلقي، أن يتفاعل مع الخطاب الشعري، وينفذ إلى أبعاده العميقة الغائرة، ويغوص إلى مراميه البعيدة، بفضل ما تختص به الأسطورة، من قدرة كبيرة على الاستئثار بانتباه المتلقي، وتوجيه أفكاره. في كثير من فصول الشعر الجاهلي، كان الشاعر يوظف الأسطورة، "توظيفا فنيا، ولا يعيد نظمها نظما خاملاً دون أدنى تحوير فيها، أو قل إنّه لا يتحدث عنها من أجلها، بل يتحدث عنها لخدمة رؤيته إلى الكون، والواقع معًا، فبها وبغيرها تتجلى هذه الرؤية، وتتكشف"[22], نلمسُ شذرات من هذه الأفكار حين نعود متوقفين عند قول «النابغة الذبياني» في معلّقته (من البسيط) [23]:

أَقْـوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِـفُ الأَبَـدِ ... يَا دَارَ مَيَّـةَ بِالعَـلْيَـــاءِ فَالسَّنَـدِ
عَيَّـتْ جَوَابًـا وَمَـا بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَـدِ ... وَقَفْـتُ فِيـهَا أَصَيْلَانًـا أُسَائِلُـهَـا
أَخْنَـى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لُبَـدِ ... أَمْسَتْ خَلَاءً وَأَمْسَى أَهْلُهَا احْتَمَلُوا

يُنبئنا الخطاب الشعري، عن الشاعر، وقد وقف وقت الأصيل على منازل صاحبته ميّة، يُسائلها، يأسى لحالها، وما صار إليه أمرها، وقد أضحت طُلولا مُقفرة، حزينة، خالية، بعد أن كانت عامرة بأهلها الذين يملؤون المكان، غامرة بالحياة، والانطلاق، والخصب، يتأسّف على عُهودها البهيجة المنصرمة، وقد أخنى عليها الدهر، كما أخنى على لُبد، إنّ في ذكر أسطورة "لُبد"، لَدَعْوَةٌ مُلحّة من الخطاب الشعري لقارئه، كي يستحثّ ملكات القراءة لديه، ويكشف عن المرجعيات التي أقحمها الشاعر في الخطاب الشعري، لتؤدي أدوارا جديدة في خدمة معاني أخرى، حين أتى على ذكر هذه الأسطورة العربية القديمة، التي جاءت في الموروث الأسطوري العربي، لتحمل كلّ الدلالات التي تؤكد على حتميّة الفناء، والموت، الذي هو منتهى كل حي –وإن طال به العهد– تتحدّث هذه الأسطورة عن «لقمان بن عاديا» –الذي اشتهر بطول عمره– وقد خُيّر أن يعيش عمرا طويلاً، فاختار أن يعيش ما يُعادل عمر سبعة نسور، وكان «لقمان» "يأخذ النسر صغيراً فيما زعموا فيربيه حتى يكبر، فإذا مات أخذ نسراً آخر، حتى استكمل عمر سبعة أنسر"[24]، وقد سمّى النسر السابع "لبد"، أي الدهر آملاً أن يعيش هذا النسر عُمرا مديدًا، يطول معه عمره، وقد كان لـ«لقمان» ما أراد، فقد عمّر "لبد"، وعاش ألف عام، غير أنّ منتهى أمره، كان أن

مات بعد كل هذه السنين الطويلة، وبعد موت "لبد"، علم «لقمان» أنّه ميتٌ لا محالة تحقيقًا لما اختاره في سالف الدهر، وكذلك كان منتهى أمره.

إنّ المغزى العميق الذي تهدف إليه هذه الأسطورة العربية، -كما أشرنا إليه- هو التأكيد على استحالة خُلود الإنسان، وحتميّة فنائه، مهما عمّر هذا الإنسان في الأرض، وملأ السمع والبصر فيها، إنّ فيها اعتراف صريح من الجاهلي، بضعفه، وقلّة حيلته أمام حوادث الدهر، وجبروته، والشاعر في هذه القصيدة إنّما عمد إلى استجلاب هذه الأسطورة، وزرعها في جنبات الخطاب الشعري، ليؤكّد هذه الفكرة العميقة، فكرة الفناء الذي يتربّص بالإنسان، والحيوان، وحتى المكان.

في أبيات «النابغة الذبياني»، يذهب الشاعر مذهبا طريفًا، نشهد معه جنوحه إلى ما يُسمّى "أنْسنة المكان" من خلال إعطاء المكان الجامد -الذي لا روح فيه- من الصفات ما هو خاص بالإنسان الحي، إنّ الشاعر وقد ألفى نفسه وحيدا بعد رحيل أحبّته، حيث لا أنيس يُشاركه أساه، أو يُصغي إلى أنين نفسه المعذّبة، نجده يلتفت إلى الديار التي هجرها أهلها، يُحاورُ المكان وقد فقد بريقه، وفقد روحه التي تسكنه، بعد رحيل ساكنيه، فإذا به لا يُجيب الشاعر الحائر المفجوع.

لقد أورد «النابغة الذبياني» أسطورة "لبد"، لا ليُعيد استنساخها من جديد، ذلك أنّها أسطورة شهيرة، في المخيال العربي منذ سحيق الدهور، وإنّما استعارها الشاعر لتأدية أغراض أخرى، مُعبّرة أنصع تعبير عن الدهر وما يفعله في الإنسان، "فالدهر في حديث النابغة هو الذي أزال معالم هذه الديار، وهو الذي أسكت الربع، وأوحشه، وهو الذي أفنى لبد، وأخنى عليه، وبذلك تتّصل أسباب فناء الديار، بأسباب فناء لبد"[25]. إنّ في إيراد هذه الأسطورة، ما يُثري دلالات الخطاب الشعري إثراءً واسعا، ويغني عن الخوض في حديث طويل عن المعاني التي يرمي إليها الشاعر، بما يشتت انتباه المتلقي، وربما يؤدي إلى عدم تفاعله، مع عوالم النص. ومن جانب آخر فإنّه يُمكننا النظر إلى هذه الصورة الأسطوريّة التي أوردها «النابغة» من منظور آخر، نغنم معه بقراءة أخرى، ودلالات جديدة يتضمّنها الخطاب الشعري، بعيدا عن فكرة الفناء الحتمي -التي أشرنا إليها في القراءة السابقة-، فلعلّ الشاعر قد نظر إلى ارتباط حياة «لقمان بن عاديا» بحياة نسره "لبد"، -كما حدّثتنا الأسطورة القديمة- إلى أن انتهت بنهاية حياته، فإنّ الشاعر، رُبّما أراد أن يُشير إلى أنّ حياته هو —كشاعر محب عاشق- هي كذلك حياة مُتعلقة -شديدة التعلّق- بوجود أحبّته قريبا منه، وأنّها كانت رهينة بدُنوه منهم، وعلى هذا فإنّ حياته هذه لم تعد تعني له شيئا، وقد رحل هؤلاء

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد الثامن / العـدد الأول
(ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م)، ص 541– 559

الأحبّة الذين كانوا يملئون عليه كلّ دنياه، إنّها أقرب إلى أن تكون موتا، وفناءً، بعدما رحلوا، وبعدما حلّ بديارهم، التي لم تعد إلاّ أثرًا بعد عين، وما الذي تعنيه هذه الحياة؟ وقد مضى الأحباب، وانصرمت عهودهم، وسكن الخراب منازلهم، وأضحت بعدهم موحشة خاليةً، وأصبح الشاعر وحيدا يُكابد أسى الفراق، ويتجرّع مرارة الفقد.

هكذا يبدو توجّه «النابغة الذبياني» إلى إسقاط السياق الأسطوري، على الواقع الشعري، واضحًا، شديد الوضوح، يكاد أن يرقى إلى أن يكون قناعة ترسّخت في ذهن الشاعر الذي نظر إلى مدى ما تحمله هذه الخيارات الشعرية، من تأثير شديد على المتلقي، وما تنهض به من إذكاء للدّلالات التي ترمي إليها القصيدة، نلمس هذا التوجّه في القصيدة نفسها، حين يعود الشاعر – في معرض دفاعه عن نفسه– لِيَذْكُرَ قصّة «زرقاء اليمامة»، تلك الفتاة الأسطوريّة الذائعة الصيت، التي حدّثتنا عنها الحكايات العربية القديمة، وقد أُوتيت حدّة البصر، وتوقّد البصيرة، حتى قيل أنّها كانت تُبصر إلى مسافات بعيدة، قد تبلغ مسيرة ثلاثة أيام، وما كان من تحذيرها قومها من عدو جاء لغزوهم، فلم يصدّقوها، فنالهم من ذلك ما نالهم من بطش أعدائهم، وتشتيت شملهم، يقول «النابغة» (من البسيط) [26]:

اِحكُم كَحُكمِ فَتاةِ الحَيِّ إِذ نَظَرَت   إِلَى حَمَامِ شِرَاعٍ وارِدِ الثَمَدِ
يَحُفُّهُ جانِبًا نيقٍ وَتُتبِعُهُ   مِثلَ الزُجاجَةِ لَم تُكحَل مِنَ الرَمَدِ
قالَت أَلا لَيتَما هَذا الحَمامُ لَنا   إِلَى حَمامَتِنَا وَنِصْفُهُ فَقَدِ
فَحَسَّبُوهُ فَأَلْفَوهُ كَمَا حَسَبَت   تِسْعاً وَتِسعينَ لَم تَنقُصْ وَلَم تَزِدِ
فَكَمَّلَت مِئَةً فِيها حَمامَتُهَا   وَأَسْرَعَت حِسبَةً فِي ذَلِكَ العَدَدِ
فَلا لَعَمْرُ الَّذي مَسَّحْتُ كَعبَتَهُ   وَما هُريقَ عَلى الأَنصابِ مِن جَسَدِ
وَالمُؤمِنِ العائِذاتِ الطَيرِ تَمسَحُها   رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الغَيلِ وَالسَعَدِ
مَا قُلْتُ مِن سَيِّئٍ مِمّا أَتَيْتَ بِهِ   إِذاً فَلا رَفَعَت سَوْطِي إِلَيَّ يَدي
إِلّا مَقَالَةَ أَقْوامٍ شَقِيتُ بِهَا   كانَتْ مَقالَتُهُم قَرعًا عَلَى الكَبِدِ

توجّه «النابغة الذبياني» بخطابه أساسًا إلى مُتلقٍ خاص جدًا، هو «النعمان بن المنذر» ملك الحيرة، بعدما اتّهم الحاسدون الشاعرَ، في أمر «المتجرّدة» زوج «النعمان»، وأوغروا صدر الملك عليه، حتى خشي على نفسه من بطشه، وانتقامه، وفرّ –في غفلة منه– من بلاطه، هائما على وجهه في صحراء العرب، وفيافيها،

يلفّه ليل الخوف، فيقض مضجعه، ويسلبه لذّة النعاس، وينظر إلى هجير الموت يتربّص به في كُلّ مكان، حتى لجأ إلى الغساسنة خُصوم «النعمان بن المنذر» طلبًا للحماية، والجوار، غير أنّه على الرغم من هذا لم يحسّ بالأمن —كلّ الأمن– في ديارهم، ولما يزل طيف «النعمان» يُطارده، في يقظته، ومنامه، وفي مقعده، ومقامه، حتى أيقن أنّ يده الطولى سوف تنال منه في يوم من الأيام، ولن يعصمه من ذلك، إلاّ عفو الملك عنه، وانقشاع سُحب سُخطه عليه، وهو لأجل هذا لم يكفّ عن الاعتذار منه حينا، ودعوته إلى الجنوح للعقل الحصيف، والحكمة في أحايين أخرى.

في هذه الأبيات يبدو توظيف «النابغة الذبياني» لأسطورة «زرقاء اليمامة» شديد الإيحاء، مُوفّقا كل التوفيق، ذلك أنّ «زرقاء اليمامة» كانت –كما حدّثتنا عنها الأسطورة– بعيدة النظر، تُبصر لمسيرة أيّام، وأيّام، ولأجل ذلك فإنّ الشاعر يهيب بالملك أن يردّ عنه كيد الكائدين، وأن يكون هو كذلك –كما كانت «زرقاء اليمامة»– سديد الرأي، عادلاً في حكمه، بعيد النظر (إحكُم كَحُكمِ فَتاةِ الحَيّ إذ نَظَرَت...)، فقد لحقه من هذه المحنة التي كابدها، وهذا الأمر الذي اتهم به حيفٌ شديدٌ.

إنّ الشاعر حين يدعو المتلقي إلى استلهام أسطورة «زرقاء اليمامة»، فإنّه لا يرمي إلى إعادة إنتاج نفس الدلالات التي تتضمّنها هذه الأسطورة، وإنّما يبغي من ذلك إفراز دلالات جديدة، تُفضي في الأخير إلى إنصافه، وتبرئته، والصفح عنه، وإعادة ما كان بينه وبين «النعمان» من سابق العلاقة الطيبة، وأواصر الودّ، والصداقة، "لقد وجد الشاعر في أسطورة زرقاء اليمامة إشعاعا قويا يستخدمه، وألوانًا زاهية، يُمكن أن تكشف له عن حقيقة هذه التهمة التي ألصقت به، ووجد فيها نهاية واضحة المعالم، وهدفًا جلي المقصد يُبدّد الظلام القاتم الذي أحاط به، ويدفع قوافل السحب التي ألمت بسماء هذه العلاقة المتينة، ولهذا طلب من النعمان أن يكون أصدق نظرًا، وأعدلَ حكمًا، ولهذا أيضا، ضرب المثل الذي يحمل الصدق الأكيد".[27]

ويُوظّف ديوان الشعر الجاهلي، في بعض من سُطوره، أُسطورة "منشم"، تلك المرأة التي احتفظت بها الذاكرة العربية منذ القديم، مُمَثّلةً رمزا شهيرًا من رُموز الشرّ، وداعية من دعاة الشؤم، وسفك الدماء، ونشر الخراب في كُل مكان، حتى قالت العرب: "أشأم من مَنْشِم"[28]، قال «الأصمعي»: "هي امرأة كانت تبيع العطر، وكانوا إذا قصدوا الحرب غمسوا أيديهم في طيبها، وتحالفوا عليه"[29]، وكما اختلف الرواة في نسب هذه المرأة، فقد حملت كُتب الأخبار أحاديث شتى عن ما ارتبط باسمها من روايات، وأساطير.[30]

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد الثامن / العـدد الأول
(ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م)، ص 541– 559

يستدعي «زهير بن أبي سلمى» في مُعلّقته أسطورة "منشم"، لإجلال صنيع «الحارث بن عوف»، و«هرم بن سنان» اللذان بذلا المساعي الحميدة في الصُلح بين حيين من أحياء العرب، هما عبس، وذبيان، وتحمّلا ديّات القتلى من الفريقين، في حرب داحس، والغبراء، وأفلحا بذلك في إطفاء نار الحرب التي ظلت مستعرة بينهما، زمنًا طويلا، يقول «زهير» في مُعلّقته (من الطويل)[31]:

عَلَى كُلِّ حَالٍ: مِنْ سَحِيْلٍ وَمُبْرَمٍ يَمِيناً لَنِعْمَ السَيِّدَانِ وُجِدْتُمَا،
تَفَانَوْا، وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمِ تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَذُبْيَانَ، بَعْدَمَا

إنّ مجرّد ذكر الشاعر لأسطورة "منشم"، كافٍ لأن يثير في ذهن المتلقي صور الخراب، والقتل، وكل المآسي التي تحملها الحرب على أهلها، وفي هذا ما يغني الشاعر عن كثير من الحديث، وهكذا يتصوّر المتلقي ما كان بين "عبس"، و"ذبيان"، من شر مُستطير، وسفك للدماء، وهذا ما يرفع من قدر السيدين اللذين أفلحا في عقد الصلح، وحقن الدماء، حتى ووضعت الحرب أوزارها.

وفي أحايين كثيرة يلوذ الشاعر الجاهلي بالأسطورة حين لا يجد في صُوَرِهِ المستمدّة من واقعه المحسوس، ما يرقى إلى سقف معانيه الباذخة التي يرمي الوُصول إليها، مُتجاوزا عوالم هذا الواقع إلى آفاق بعيدة في سماء الشعر، وهُنا تكون الأسطورة أداة الشاعر المثلى في تحقيق هذا الطموح الفيّاض الذي لا تحدّه حُدود، نلمسُ شذرات من هذا التوظيف الشعري للأسطورة عند «امرئ القيس» حين أراد أن يُصور شدّة فتكه، وقوّة ذات يده، وما يمتلكهُ من عُدّة، وعتاد، يُرهبُ به غريمه البائس المخدوع، مُستدعيا أسطورة الغول، ذلك الكائن الأسطوري المفزع، يقول (من الطويل)[32]:

لِيَقْتُلَنِي وَالمَرءُ لَيْسَ بِقَتّالِ يَغِطُّ غَطيطَ البَكْرِ شُدَّ خِنَاقُهُ
وَمَسنُونَةٌ زُرقٌ كَأَنيابِ أَغوالِ؟ أَيَقتُلُنِي وَالمَشرَفِيُّ مُضاجِعِي

يَبُثّ الشاعر في هذين البيتين كُلّ ما يدلّ على اعتداده بنفسه، وشدّة بأسه، أمام غريمٍ مقهور قليل الحيلة، لا يملك إلاّ صُراخ المغتاظ المختنق المهزوم، الذي خذلته نفسه الضعيفة الصغيرة الصاغرة، أمام الشاعر الذي هو ملك ابن ملك بالدرجة الأولى، ومن جانب آخر فإنّ هذا الغريم لا يُحسنُ النزال، ومقارعة الرجال، ولا يملك من أدواتِهِ ما يملكه الشاعر الذي يحتكم على سيف صارم بتّار، وسهامٍ مسنونةٍ حادّةٍ كأنّها أنياب الأغوال، لقد جاء ذكر «امرئ القيس» للغول في البيت الثاني، لَيَغْمُرُ القصيدة بفيض

أسطوريٌ دافق، يضع المتلقي أمام قدرات خارقة يحتكم عليها الشاعر، تتجاوز كلّ ما يُمكن أن يتخيّله المتلقي في واقعه، وتقع عليه حواسه، من أدوات البطش، والفتك. لقد حمل إلينا التراث العربي، دورا قرائيا مُنتجا، ارتبط بهذا البيت الشهير، وذلك عند وقوف علماء التفسير القرآني، عند قوله تعالى: «**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طلعها كأنّه رؤوسُ الشياطين**»[33]. فقد سُئل «أبو عبيدة»، عن التشبيه في الآيتين الكريمتين، وقد ورد في سياق وعيد شديد للظالمين، وقد رأى سائِلُه أنّه "إنّما يقعُ الوعدُ، والإيعادُ بما عُرف مثلهُ، وهذا لم يُعرف"[34]، وهو يقصد بهذا أنّ رؤوس الشياطين التي شُبّه بها طلع شجرة الزقوم، ليس للعرب عهدٌ بمعرفتها، فأجاب «أبو عبيدة» سائلهُ، بأنّ الله تعالى إنّما كلّم العرب على قدر كلامهم مُستندا إلى قول «امرئ القيس»، في البيت السابق، وهُم لم يروا الغول قط، ولكنّهم لما كان أمر الغول يُهولهم، أوعدوا به.[35]

4- خاتمة:

إنّ الخطاب الشعري الجاهلي، وإن كان خطابا متقدما إذا نظرنا إلى موقعه الزمني، في خارطة التجربة الشعريّة العربية، إلاّ أنّه يمثل نموذجًا مثيرًا للإعجاب، فقد ألفينا الشاعر الجاهلي يغرف من محمولات ثقافته، مُستندا إلى تقاليد القصيدة الجاهليّة التي توطّدت أركانها بمرور الزمن، وتوارثها الشعراء جيلا بعد جيل، وقد استطاع توظيف سياقات ذات طبائع مختلفة، احتلت مواقعها الجديدة في مساحة الخطاب، وأدت أدوارا جديدة، خدمة لعديد من المقاصد التي كان يهدف إليها الشاعر، وقد مثلت إشارات من شأنها أن تُساعد القارئ على إقامة حوارات قرائية، تهدف إلى كشف الحمولات الدلالية المختلفة التي يكتنزها الخطاب.

إنّ هذه الإشارات لَتعكس تحولات سياقية مختلفة، استمدّها الشاعر من واقع خارجي عن الخطاب، واستطاعت أن تحتلّ مكانها في الداخل النصي، حاملةً معها صُنوفًا من الدلالات الجديدة، أغنت الخطاب الشعري، وأسهمت في إذكاء المعاني التي يرمي إليها، وعملت على توجيه عملية القراءة لتحقيق أهدافها، إنّ أهميّة هذه السياقات، إنّما تكمن في كونها تساهم في إقامة جُسور تواصليّة بين القارئ، والخطاب، مُؤدّية إلى قيام تفاعل حقيقي، يُغني رصيده القرائي، ويقود القارئ في النهاية إلى الاهتداء إلى مكامن المعنى الشعري.

5. الهوامش:

(1)روبرت هولب، **نظرية التلقي مقدمة نقدية**، ترجمة عز الدين اسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 2000م، ص 194.

(2) إبراهيم نمر موسى، **توظيف الشخصيات التاريخية في الشعر الفلسطيني المعاصر**، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد33، العدد 2، 2004م، ص117، 118.

(3) ابن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ج1، ط5، تح مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت، 1981م، ص197.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص197.

(5) عدي بن زيد، **ديوان عدي بن زيد العبادي**، تحقيق مُحَمَّد جبار المعيبد، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، دط، 1965م، ص45، 46، 47. **القزع قطع من السحاب صغار متفرقة، مزن:** جمع مزنة وهي المطرة، المحارب: الغرف المرتفعة، الغوارب: الأعالي، عنت الدهر: شدته، الإمة: النعمة، الكرب: الحزن والمشقة، بنو تبع: حكام اليمن، النخاورة: الأشراف، المرازب: جمع مرزبان: الرئيس من الفرس.

(6) النابغة الذبياني، **ديوان النابغة الذبياني**، ط2، تحقيق مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، دت، ص42،43، 44، 45. خظرا عيونها: تنظر بمآخير أعينها. المرانب: ثياب سودٌ، أرقلوا: أسرعوا.

(7) أبو هلال العسكري، **كتاب جمهرة الأمثال**، ط2، ج2، تحقيق مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل، بيروت، 1988م، ص233.

(8) النابغة الذبياني، مرجع سابق، ص127، 128.

استلأمتُ: لبستُ اللأْمَةَ وهي الدرع، النسار: يوم لبني أسد على بني عامر، المجن: الترس، الجفار: موضع، عكاظ: من أيام العرب، حُجر: هو أبو امرئ القيس الشاعر الذي قتله بنو أسد، الخميس: الجيش، زحف رحيب: أي جيش كثير، مرجحن: ثقيل، ذيال: فرس طويل الذيل، الرفن: الضافي الكثير، ضمر كالقداح: شبه الخيل في ضمرها كالسهام، مسومات: معلمات، عليهنّ علامات يعرفن بها في الحروب، تعاورته ثمّ بيض: أي تداولته السيوف، المكن: الغبار الساتر المغطى، والهاء في تعاورته راجعة على حجر (الديوان، ص 127، 128).

(9) الأعشى، **ديوان الأعشى الكبير**، تحقيق مُحَمَّد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، القاهرة، دت ص281.

(10) المرجع نفسه، ص282.

(11) أوس بن حجر، **ديوان أوس بن حجر**، دط، تح مُحَمَّد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م، ص97، 98.

السراء: النبع، معطل: غير صالح، الجرجة: خريطة من الأدم كالخرج، الأدكن: زقا أدكن، أري: عسل، دبور: جمع دبر وهو النحل.

(12) إيليا حاوي، **في النقد والأدب**، ط4، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979م ، ص128.

(13) المرجع السابق، ج2، ص139.

(14) المرجع نفسه، ج2، ص140.

(15) علي عشري زايد، **عن بناء القصيدة العربية الحديثة**، ط4، مكتبة ابن سينا للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002م، ص121.

(16) أيمن تعيليب، **أسطورة النسر في الخطاب الشعري المعاصر من نص الأسطورة إلى أسطورة النص**، ط1، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دسوق ، 2010م، ص33.

(17) المرجع نفسه ، ص33.

(18) مصطفى الرزاز، **الأسطورة في الفن الحديث**، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد40، العدد 4، 2012م، ص146.

(19) المرجع السابق، ص146.

(20) كاملي بلحاج، **علاقة الشعر بالأسطورة**، قراءة في المكونات والأصول، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، العدد 394 شباط 2003م، ص 46.

(21) نوري حمودي القيسي، **دراسات في الشعر الجاهلي**، دط، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، دت، ص177، 178

(22) وهب رومية، **توظيف الأسطورة في الشعر الجاهلي**، مجلة التراث العربي، العدد 93، 94، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004م، ص40.

(23) النابغة الذبياني، مرجع سابق، ص14،16.

العلياء: ما ارتفع من الأرض، السند: سند الجبل، وهو ارتفاعه، أقوت: خلت من الناس، السالف: الماضي، الأبد: الدهر، أصيلانا: تصغير أصيل وهو وقت العشي، عيت جوابا: لم تجب، الربع: منزل القوم، أخنى عليها: أفسد عليها الدهر، لبد: آخر نسور لقمان بن عاد وقد عمّر طويلا.

(24) أبو هلال العسكري، مرجع سابق، ص126.

(25) نوري حمودي القيسي ، مرجع سابق، ص189

(26) النابغة الذبياني، مرجع سابق، ص23، 24، 25، 26.

(27) نوري حمودي القيسي، مرجع سابق، ص182

(28) أبو هلال العسكري، مرجع سابق، ج1، ص557.

(29) المرجع نفسه، ص445.

(30) نوري حمودي القيسي، مرجع سابق، ص195، 196.

(31) زهير بن أبي سلمى: ديوان زهير بن أبي سلمى، ط2، شرح حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، 2005م، ص66، 67. سحيل: المعقود على قوة واحدة، المبرم : المعقود على قوتين اثنتين والمفتول عليهما.

(32)امرؤ القيس، **الديوان**، ط5، تح مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1990م، ص33. البَكر: الفتى من الإبل، المشرفي: سيف نُسب إلى قرى في الشام يقال لها المشارف، مسنونة زرق: سهام محددة الأزجة، زرق: صافية.

(33) سورة الصافات الآية 65.

34 ابن الأنباري، **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء الأردن، ط3، 1985م، ص87.

35 المرجع نفسه، ص87.